



السبت 3 ديسمبر 2011 12:12 م

## أد/ عبد الرحمن البر

من اللطائف المذكورة في كتب الأدب أن رجلاً من العرب قال: رأيتُ البارحة الجنَّة في فنامي، فرأيتُ جميع ما فيها من القصور، فقلتُ: لمن هذه؟ فقيّل لي: للعرب؟ قال له رجلٌ من العجم: صعدتُ العُزف (يعني في أعالي القصور)؟ قال: لا؟ قال: تلك لنا! كثيراً ما تذكرتُ هذه اللطيفة وأنا أسمع بعض المتحدثين من خلال الفضائيات يتحدثون عن الشعب المصري، وعماً أطلقوا عليه (الأغلبية الصامتة)، وكل منهم ينصّب نفسه متحدّثاً عن هذه الأغلبية الصامتة، متشبّهاً بهذا العجمي الذي ادّعى أن له ولقومه الغرف العالية في الجنة، وبالطبع فإنه لا أحد يملك أن يمنع غيره من ترديد ذات الادعاء، ولهذا لم يكن عجباً أن يدعي من شاء أنه يمثل ضمير هذا الشعب الصامت، ويعبر عنه في مواجهة من أسموهم (الأقلية المنظمة)، بل حين نزلت ملايين الشعب إلى التحرير وإلى ميادين مصر المتعددة وجدنا من يقول: إن الذين نزلوا إلى الميدان قد حركتهم (الأقلية المنظمة) وليسوا هم كل شعب مصر، وأن ثمة أغلبية صامتة يعلم سيادته أنها تشاطره الرأي والفكر، وأنها حين يتاح لها أن تعبر عن نفسها فسوف تنطق بما ينطق به!

ثم شاء الله أن يجري استفتاء حرّ على بعض مواد الدستور، ودُعيت الأغلبية الصامتة لتتنزل وتعبر عن رأيها، وفي مشهد مهيب جليل نزلت هذه الأغلبية وتخلت عن صمتها، وعبرت عن رأيها بجلاء، فإذا بها تردد نفس الرأي الذي قالت به (الأقلية المنظمة)، وإذا بالذين يدعون أنهم ممثلوها يخرجون عن وقارهم ويتهمون هذه (الأغلبية الصامتة) بالجهل وقلة الوعي وعدم النضوج السياسي، والوقوع في شرك (الأقلية المنظمة) من التيار الإسلامي التي استغلت جهلهم وفقدهم واشترت أصواتهم بزجاجة زيت وكيس سكر! ثم دُعيت الفئات المثقفة صاحبة التعليم العالي من تلك الأغلبية لاختيار مجالس النقابات المهنية فإذا بها تختار بحرية كاملة من يعبر عن مصالحها وهويتها! لتسقط زيف ادعاء الزيت والسكر!

وكلما حاول أولئك المتحدثون (بغير تفويض) باسم هذه الأغلبية أن ينحرفوا بالثورة عن مسارها واستحقاقاتها، بالالتفاف على الإعلان الدستوري والدعوة للدستور أولاً حيناً، ثم بالمبادئ الحاكمة (زعموا) حيناً، ثم بوثيقة السلمية حيناً، وخرجت الملايين معترضة على كل تلك الملاعب؛ كان القوم يقللون من شأن الملايين، ويدعون أنهم يعبرون عن (الأغلبية الصامتة) التي دلّتهم الأحداث على أنها لم تعد صامتة، لكنهم يصرون على اغتصاب حق التحدث باسمها!

ويذا للقوم مع قرب إجراء الانتخابات البرلمانية أن (الأغلبية الصامتة) قد خرجت عن صمتها وأصرت أن تعبر عن رأيها، وأنها إن تمّ إجراء الانتخابات في موعدها فإنها ستفضح زيفهم وتكشف أباطيلهم، فأشعلوا نار فتنة في ميدان التحرير بين يدي الانتخابات، وحاولوا استدراج قوى الأمة إليها، وبدلاً من العمل على إطفاء نار الفتنة تسارعوا في النيل من التيار الإسلامي وعلى الأخص من الإخوان المسلمين (الأقلية المنظمة) التي كانت أذكى من أن تُستدرج لمستنقع الفتنة، وتعالّت أصواتهم بإلغاء الانتخابات أو إيقافها أو تأجيلها ريثما يتسنى لهم أن يخترعوا فكرة لإيقافها، وأعلن بعضهم عن إيقاف حملته الانتخابية، وراحوا يقسمون بأغلظ الأيمان أن الحالة الأمنية لا يمكن أن تسمح بإجراء الانتخابات، وأن الشعب (الأغلبية الصامتة) لا يمكن أن تغامر بالخروج إلى لجان التصويت في ظلّ الانفلات الأمني وسيادة البلطجة في الشارع المصري، وكان المشترك الذي جمعهم جميعاً الانشغال بالنيل من (الأقلية المنظمة) التي تريد أن تخوض الانتخابات بأي ثمن، ولم يقدموا لهذه الأغلبية برنامجاً يقنعها ويعبر عن تطلماتها، وظنوا أن تضييع الأوقات والجهود في التركيز على هدم المجتهدين والعاملين كفيل بأن يجمع عليهم جموع (الأغلبية الصامتة).

وجاءت الانتخابات، ففوجئ الجميع بالأغلبية الصامتة تخرج مرةً أخرى في صورة مبهرة لتعيد تقديم الشعب المصري إلى العالم في صورته الحقيقية المشرقة، وما إن انبج فجر الإثنين وبدأت شمسها بالإشراق حتى أخذت جموع (الأغلبية الصامتة) تزحف إلى لجان الانتخابات في موجات بشرية متلاحقة، وفي مشاهد راقية مؤثرة، تضم هذه الجموع الهادرة الكبار الذين جاوزوا الثمانين والصغار الذين خرجوا مع ذويهم، قبل فتح أبواب اللجان بأكثر من ساعة، يشهدون هذا العرس المصري الرائع، لتحفظ ذاكرتهم للتاريخ هذا الميلاد الجديد للشعب الحر، ويصطف الجميع في طوابير طويلة تتجاوز الكيلو متر أحياناً، ولسان حالهم يقول للذين ملئوا أسماعنا تخويلاً وحياتنا ضجيجاً:

قل ما بدا لك من زور ومن كذب حلمي أصم وما أذني بصماء

ومضت أفراح الشعب الحر طوال يومي التصويت خالية من أي عنف، وأعاد الشعب والجيش عزف لحن الأمن والوحدة، بطريقة بهرت الجميع، وأكدت أننا نستطيع أن نفعل الكثير إذا توفرت الإرادة الصادقة، وقطعت الطريق على كل مدع يرفع صوته بأنه يمثل هذا الشعب الساكت أو هذه الأغلبية الصامتة التي خرجت عن صمتها وأعلنت للجميع: أنا الشعب أنا الشعب! وأعلنت الدنيا شهادة نجاح لهذا الشعب الحر، أيّ ما كانت النتيجة التي سيظهرها الصندوق، وأيّ ما كان الحزب الذي سيتقدم فيها!

لكن يا ترى هل ستقبل النخبة إياها خيار الأغلبية، وتقبل بما ينطق به صندوق الانتخابات، أم إن الجراب لا يزال يحتوي على سهام التشكيك والتجهيل؟ سألت صاحبي هذا السؤال فقال: لئن طمعت في قبولهم لخيار الأغلبية لقد أطمعت نفسك في المحال؛ لأن منتظر الإنصاف ممن اعتاد على الافتراء كمنتظر بيضة الديك

أترجو بالجراد صلاح أمرٍ وقد طبع الجرادُ على الفساد  
أكتب هذا المقال ولم تظهر بعد نتائج المرحلة الأولى ولا مؤشراتهما، وإن كانت اتجاهات الرأي العام تؤكد أن النجاح للعاملين في الميدان لا للمتاجرين بالكلام والشعارات، لكنني ومن منطلق ديني ووطني خالص أتوجه بنصيحة مخلصة إلى أولئك الذين قصروا برنامجهم على انتقاد التيار الإسلامي (المنظم): أن راجعوا مواقفكم، وقدموا للأمة برامجكم، وانزلوا من أبراجكم الصحفية والإعلامية إلى واقع الأمة، ولا تصادموا عقائد الأمة ولا نوااميس الكون، واعلموا أن السبِّ والذمَّ بغير حق لا يجدي شيئاً، وأن المكر السيئ لا يحيق إلا بمن مكر، وتأكدوا أن أمتكم قد شبت عن الطوق، وأنها قادرة على تمييز الغث من السمين، ولن تفيدكم شيئاً هذه النظرة الاستغلالية للشعب العظيم

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للظرف لا للنجم في الصغر  
وإن فاتكم ما أقلتم في المرحلة الأولى فلا تزال أمامكم فرصة في المرحلة الثانية والثالثة، إذا تركتم العويل والبكاء على اللبن المسكوب، والتماس العيب للبرء والمخلصين، وانشغلتم بتقديم الأفكار والبرامج المقنعة لهذا الشعب الواعي الناضج القادر على تمييز الأفكار والأشخاص

كبسولة: لاقني بعض الأصدقاء على سكوت جماعة الإخوان المسلمين عن الردِّ على كثير من الاتهامات الزائفة من بعض المتخصصين في الافتراء على الإخوان، فجرت على لساني قول الشاعر:

أو كلما طنَّ الذبابُ طردته ... إنَّ الذبابَ إذاً عليّ كريمٌ  
يُحكي أنَّ رجلاً أسمع حكيماً فاصلاً من السبِّ والشتم والحكيم معرض عنه، فقال له الرجل للحكيم: إياك أعني، فقال الحكيم: وعنك أنا أغرض!

لا يحمل الحقدَ مَنْ تعلق به الرُّتبُ ولا ينال العُلا مَنْ طبعه الغضبُ

\* عميد كلية الدين بالمنصورة، وعضو مكتب الإرشاد بجماعة الإخوان المسلمين، وعضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين